الثورة السورية وحصاد داعش.. المخرج الأخير

الكاتب : مهنا الحبيل

التاريخ : 7 أغسطس 2014 م

المشاهدات : 5700

لو كانت إعادة ما ذكرناه وحذرنا منه في سلسلة تحليلاتنا عن الثورة السورية طوال ثلاث سنوات مفيدة اليوم لأعدنا تسجيله من جديد لكنه يبقى من الماضي، ومع ذلك فإن استدعاء بعضه الآن بألم, مهم لفهم الدرس ولما يتطلبه المستقبل الحسّاس لإنقاذ الثورة وشعبها المدني.

لقد حددنا مبكرا المسار السياسي والمخابراتي الذي سيتحقق للحلف العالمي الجديد الذي بات يضم مشاركة عربية تتوسع كل يوم، في دلالة تؤكد أن العهد الإيراني الأميركي للمشرق العربي يتقدم بخطوات قوية من التنسيق واندماج الموقف، وأن شراكة محور خليجي باتت فاعلة ومنتظمة، فيما اخترقت واشنطن دولا من داخل قرارها.

نشأة داعش الجديدة:

وما يعنينا هنا هو سياق هذا التوافق والتقاطع الضاغط على الثورة السورية، لقد حقق التحالف ما يصبو إليه من داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام) وهو تفتيت ميدان الثورة السورية ونشر الفوضى في مناطقها واستهداف مدنيّيها من داخل محاضنها.

وكان المدخل الرئيسي الذي أنذرنا منه فصائل الثورة، هو تمكين أي مجموعات قاعدية منشقة أو منتظمة من اختطاف الميدان وبعثرة الثوار، وهو أكثر بكثير من سلبيات ضعف التنسيق لدى الجيش الحر في رمزيته السابقة وأخطائه التي كان بالإمكان معالجتها ونقله إلى مؤسسة مرنة كجهاز عسكري للثورة ويبقى محافظا على ممانعتها الوطنية أمام الاختراق.

لقد نجحت الفكرة الأيديولوجية التي بُثت للنيل من صدقية التوجه الإسلامي في أصل الثورة وشعبها، وبالتالي خلق أرضية لتأمين هذا التدخل بحجة إسلامية وصحة عقيدة المقاتل الوافد وأن ثوار الشعب ليسوا مجاهدين شرعيين، وكان ذلك يتم تحت دعوى النفير لنصرة الشام فيما اكتنز الموقف الأيديولوجي داخله، رغم كل الشهادات بأن النقص في العتاد لا الرجال.

إن هذا التقاطع الخطير كان هو المدخل لاستثمار أجهزة مخابرات عدة وحاجة السيناريو الإسرائيلي الإيراني وغطائه الروسي الأميركي لفكرة التفويج التي تمارسها أجهزة مخابرات متصارعة، وهنا يتبين ما قصدناه من الدفع المخابراتي لمناطق العالم السني ونكباته وإدارة هذه المجموعات لوجستيا, حتى تفتك بجسد الثوة وتشل مركزيتها.

وهو ما يعني أن الغالبية الساحقة من أولئك الشباب لا يعرف ولا يعلم كيف يتم تجنيد مهمته، وإن كان ذلك لا يُلغي الاختراق

المباشر لعناصر أو مجموعات، خاصة في ظل الجنون التصنيفي بناء على صفاء العقيدة أو تهمة التخابر الأجنبي التي قد يطرحها ضد شخصيات أخرى في داخل المجموعة المتشددة عُنصر أمني ضد منافس له داخل المجموعة أو خارجها.

وحين تكاملت عناصر التواجد المطلوبة، قاد فريق شعبي خليجي اتهام غالبية جسم الثورة السورية وألوية الجيش السوري الحر بأنها صحوات وذلك في رفضهم لمركزية ثوار سوريا الداخل، تمهيدا لتفكيك التماسك الوطني الذي يُنظّم البناء الاجتماعي لشعب الثورة ويحتضنه.

هذا الفريق أكثره حادب ومخلص لكنه لم يوفق أبدا في دعم وحدة الثوار، وسعى لهدم بنائهم مقابل بناء إسلامي صاف كان يعتقده بحسب معاييره لا بمعايير منهاج أهل السنة، ومن المفارقات المروعة أن داعش استخدمت هذا المصطلح وأشعلت الحرب على جماعات ثورية حُسبت على ذلك الفريق، وكان أول وأكثر من واجه حملة داعش بتقطيع رؤوس قادتها وتفجير مدنييها هم الفصائل الثورية السلفية التي كانت منضوية في رمزية الجسم المركزي للثورة.

إن بطش داعش بحركة أحرار الشام ذات التوجه السلفي المعتدل والذي كان ممكنا جدا أن تندمج تصوراته وشراكته في مشروع الجسم العسكري الموحد، يُظهر لنا إشكالية فكر السلفية الطائفية المُسلّح، حيث إنها لا يُمكن أن تتعايش مع مشروع إنقاذ لمناطق الأمة، لكن من الخطأ أن تُفرز بذلك داعش دون مجموعات أخرى قاعدية ممكن جدا أن تتجه لهذا المنحدر ولها سوابق.

وما جرى من تحذير صريح من بعض الشخصيات السعودية السلفية خاصة الشيخ عبد العزيز الفوزان من جرائم وتوجهات داعش، والتأكيد على كارثية ذهاب الشباب، وهو ما سبق للشيخ سلمان العودة تأكيده مرارا, كان له أثر إيجابي في تفكيك قناعات شعبية، خاصة في تحمّل الشيخ عبد العزيز الفوزان تبعات البلاغ عن هذا الموقف الخطير والمصارحة فيه.

إلا أن ما تبقى من نفوذ قوي وخاصة جيش داعش الإعلامي أو من يتعاطف معها كان كافيا لتحقيق ذلك المستوى من الاختراق والفوضى، سواء في مرحلة مواجهة داعش للثورة السورية أو ما سبقها، واستدرجت من ذهبت أرواحهم معها من شباب في مقتبل العمر من أهل الخليج العربي واليمن.

ومعلوم أن هاتين المنطقتين يتدفق منهما الشباب صغار السن، في حين من ينضم إلى داعش أو ما ماثلها من المناطق الأخرى عادة ما يكون متقدما في عمره وفي أيديولوجيته.

ولقد كان واضحا عبر رصد تويتر ومتابعته الدقيقة والتسريبات المهمة حجم تعويل البغدادي ومجلسه على مناطق محددة من الخليج العربي وخاصة القصيم لضمان تدفق الدعم والعناصر الغضة التي يسهل تطويعها، وتكرار تجارب المواجهات مع ثوار الداخل حين يقال لهذا الشاب هؤلاء صحوات أو مرتدون أو غير ذلك، وكذلك ضمان تدفق الدعم المادي لتلك المشاريع.

وكل ذلك يدعو وللضرورة إلى إعادة تقييم فكر الحالة السلفية والتقدم بها نحو مصارحات علمية للتفصيل بين السلفية الطائفية والسلفية العلمية، وبين مسلك مدرسة أهل الأثر الأصلية في منهاج أهل السنة وبين هذا المسلك الذي يعتمد على تضليل الشعوب وطبقات علماء أهل السُنة وربط ذاته بقلة يختارها التعصب أحيانا، وعليه فلا تنتظر منه طاعة أو إجلالا للعلماء الذين لا يعتمدهم التنظيم والتفكير الطائفي، وهنا يسهل خلق مرجع له في ظل رفضه قراءة موقف الشرع عبر رؤى أهل السُنة المتعددة شخصياتهم.

ماذا ينتظر الثائر السوري؟

إن هذه الخلاصة المهمة سردناها لمعرفة طريقة نفوذ هذا الفكر وكيف تُحول قاعدة التنظير لديه لمشاريع تنفيذية، ولذلك كان من الخطأ أن تُشارك فصائل ثورية سورية في تمكين هذا التفكير، وهو درس مهم لا يزال تأثيره قائما بأن تعي الفصائل الإسلامية منهاج السياسة الشرعية الواجبة، وتَخْلُص إلى مفاهيم الفقه ومدارات الاستنباط عبر أصل منهاج أهل السنة لا

السلفية الطائفية.

وأن مصادر هذا الفقه هي أصول الشرع ومسالكه ومنها مآلات استنباطه، وأن تخرج الثورة من دائرة استثارتها عاطفيا، بأن هذا المشروع ليس إسلاميا ومقابله هو الشرعي لأن الشيخ فلان أو علاّن من أهل الخليج لم يعتمده.

وعليه فإن الوضع اليوم خطير جدا ومعنى الفشل في تصوره ودقة مساراته سيؤدي إلى خسارة الثورة السورية، وفي المقابل عدم ضمان سلامة مناطق أُخرى للمدنيين كما يراهن واهما فريق الائتلاف الوطني حتى مع ضمان بقاء فترة انتقالية وهمية للأسد يُعيد فيها استنساخ هيكله باسم جديد أو عهد ديكوري.

إن إيمان هذه الفصائل الإسلامية بمنهاج أهل السنة الذي يراجع الضرورات وفقه دفع الصائل والقبول بأخف الضررين وفتوى الحال القاهر في مقابل فقه الاختيار والترجيح سيُساعد الميدان على تماسكه وتقريب وتوحيد فصائله والعودة إلى البيت السوري الداخلي الغني بالعلماء والمفكرين والإرث السياسي.

ومن هنا فإن أول تأسيس بناء هذه المرحلة هو العودة لتجميع جبهات الثوار السوريين، وهم مجاهدون شرعيون من أصل ثورتهم وكفاحهم، والخلل هنا وهناك من ضباط أو مجموعات في الجيش الحر لا يُقارن بكارثة اجتياح الفكر الداعشي ومآلاته.

إن هذا التأسيس لضم الجبهات السورية والجيش الحر لمجلس عسكري موحد جديد هو المخرج الوحيد، وحينها سيسهل دفع داعش وتحييدها عن الثورة، وتنظيم التنسيق مع جبهة النصرة بمعايير محددة ومكتوبة، وهو المدخل لإنقاذ الثورة والشعب وحلمه السياسي.

العودة إلى المشروع السياسي:

وهنا حين يتماسك الميدان ويُفرز بصورة وطنية ومنظمة تجمع شتات علماء الثورة وفصائلها، ستتمكن الثورة من تحييد داعش والمحاور المستثمرة عبرها، وتحتاج بعد ذلك إلى تعاط سياسي دقيق يجب أن يتعامل بذكاء أمام اتفاق العالم الظالم ضده.

وما نقصده عدم الاندفاع بردود عاطفية في التعامل مع جنيف الذي أُسس أصلا لتصفية الثورة السورية سياسيا، لكن ستُخضع كل الدول للتعامل معه بعد الاتفاق الروسي الأميركي, وعليه فإن قدرة المشروع السياسي للثورة ستتصاعد عبر تجنب أكبر مساحة مصادمة مع هذه الأطراف حتى لا تتحفز ضدهم والتركيز على تأمين الميدان وسلامة الشعب حتى تمر أجواء المؤتمر الصاخبة.

وهو ما يستدعي تقدير ظروف الأطراف السورية المجتهدة وكسبها للمستقبل وتحييد المتورطة بهدوء، بعدها تُنسق جبهات الداخل بعد توحيدها مع الأطراف السياسية السورية وخاصة المجلس الوطني، ويُعاد رسم الخريطة ومساحات الاجتهاد التي تُقدر الضرورات لإنقاذ هذا الشعب, ولا يشمل ذلك بالطبع أي بقاء لنظام الأسد, لكن الحاجة قائمة لمزيد من المهارة في التعامل مع الضغوط وبقاء مساحات التعاطف من أي جهة مع الثورة.

ومع هذا الحراك السياسي الذي يجب أن يُقرّب السوريين في خيمة ثورتهم وشعبهم، يحتاج الثوار ومناصروهم إلى تأمين المدنيين عبر أكبر نطاق ممكن من المخيمات في الداخل والحدود بعيدا عن القصف والانفجارات، وهي مدارات وقعت لشعوب عدة ثم عادوا، وهي أهون بكثير من بقاء النزيف الدموي الهائل الذي يتواطأ العالم عليه.

وعندها سيتحرر الثوار بشكل أكبر، ويتمكنون من استغلال قدراتهم الميدانية واستعادة زمام المبادرة لمعارك حاسمة، أما بقاء الخلل والصراع وتدخل أطراف خارجية شعبيا ورسميا وتصلّب الفصائل والشخصيات لآرائها، فهو ـ والله ـ مقدمة الهاوية.

الجزيرة

المصادر: